من وحى العادات الريفية

أغنية الموت

قصة تمثيلية فى فصل واحد

(دار من دور الفلاحين فى الصعيد.. امرأتان جالستان فى ثياب سوداء قرب المدخل .. هما « عساكر » .. و« مبروكة » وعلى مدى خطوة منهما عجل .. وجدى يأكلان الحشائش والدريس الجاف .. والمرأتان فى إطراق وصمت .. وعندئذ يسمع صوت صفير القطار ...)

مبروكة : **(ترفع رأسها)** هذا هو القطار ...

عساكر : **(بلا حراك)** أتظنين أنه سيأتى فيه ..

مبروكة : ألم يقل ذلك فى خطابه .. الذى قرأه علينا البارحة « الشيخ محمد الإسناوى » عريف الكتاب ؟..

عساكر : إياك يا مبروكة أن تكونى قلت لأحد إنه ابنى !..

مبروكة : أأنا مجنونة ؟!.. ابنك علوان مات وهو طفل ابن عامين .. مات غريقا فى بئر الساقية .. البلدة كلها تعرف ذلك ..

عساكر : ولكنهم هم ما عاد يدخل عقولهم هذا الكلام !..

مبروكة : من هم ؟.. الطحاوية ؟!..

عساكر : ألم يقل لك ابنك « صميدة » ما سمع ذلك النهار فى السوق ؟!..

مبروكة : ماذا سمع ؟..

عساكر : سمع أحدهم يقول فى حلقة من الناس : إما أن « العزايزة » لم يبق فيهم غير نساء ، وإما أنهم يخبئون رجلا للأخذ بالثأر .. رجلا أقرب إلى القتيل من « صميدة » ابن أخيه . ومن يكون أقرب من ابن الأخ غير الإبن ؟!..

مبروكة : نعم .. قال لى ذلك ابنى « صميدة » .. ولولا هذه الإشاعة لما استطاع يمشى فى البلد مرفوع الرأس !..

عساكر : فليعلموا اليوم أن ابن القتيل لم يزل حيا .. لم يبق هناك خوف عليه وقد بلغ مبلغ الرجال .. لست أنا الآن التى أخاف .. بل

هم الذين يؤرق أجفانهم الخوف !.. أسرع به أيها القطار .. أسرع .. لقد انتظرت طويلا !.. سبع عشرة سنة !.. أعدها ساعة ساعة .. سبع عشرة سنة !.. أحلبها من ضرع الدهر قطرة قطرة كما يحلب اللبن من ضرع البقرة العجوز ..

مبروكة : (**تصغى إلى صوت**) ها هو القطار قد دخل المحطة .. سيجد ابنى « صميدة » فى انتظاره !..

عساكر : (**كالمخاطبة نفسها**) نعم !..

مبروكة : (**تلتفت إليها**) مالك يا « عساكر » .. ترتعدين !..

عساكر : (**كالمخاطبة لنفسها**) أغنية « صميدة » .. ستدلنى ..

مبروكة : تدلك ؟..

عساكر : على حضوره ..

مبروكة : قلت لا بنى أن يغنى علامة على وصول « علوان » ؟!..

عساكر : نعم إذا اقتربا معًا من داير الناحية ..

مبروكة : تجلدى يا « عساكر » .. تجلدى .. مضى الكثير .. ولم يبق غير القليل ..

عساكر : ليس الذى بى الساعة خوف ولا ضعف ..

مبروكة : أيام الخوف ذهبت إلى غير رجعة .. لن أنسى ذلك اليوم الذى أخفيت فيه ابنك « علوان » وهو ابن عامين فى « قفة » الطحين ، وحملته ليلا ، خارجة به من البلدة إلى القاهرة ؛ لتستودعيه قريبك الدقاق ، فى دكان العطارة بحى « سيدنا الحسين » !..

عساكر : قلت له أنشئه جزارا .. ليحسن استخدام السكين ..

مبروكة : لم ينفذ رغبتك ..

عساكر : بل نفذها وألحقه عندما بلغ السابعة بدكان جزار .. ولكنه هرب بعد ذلك من دكان الجزارة ..

مبروكة : ليلتحق بالأزهر الشريف ..

عساكر : نعم .. وعندما ذهبت إليه فى العام الماضى ، رأيته فى عمامته وجبته ،تكسوه المهابة .. فقلت له : آه لو كان رآك أبوك على هذه الحال ، لقرت عينه بك !.. ولكنهم لم يتركوه ليرى ابنه يكبر ويفرح به هذه الفرحة !..

مبروكة : أما كان من الخير أن يبقى فى دكان الجزارة ؟..

عساكر : لماذا تقولين هذا يا « مبروكة » ؟!..

مبروكة : لا أدرى .. هو خاطر مر بى ..

عساكر : أنا أعرف هذا الخاطر ..

مبروكة : ما هو يا « عساكر » ؟..

عساكر : يسوءك أن يلبس ابنى العمامة والجبة .. بينما يبقى ابنك بالدفية والزعبوط !..

مبروكة : أحلف لك بروح المرحوم أن هذا شىء لم يمر بخاطرى ..

عساكر : ولماذا إذن تكرهين لعلوان أن يكون فى الأزهر الشريف ؟!..

مبروكة : ما كرهت والله ذلك .. ولكنى فقط أخشى ..

عساكر : تخشين ماذا ؟..

مبروكة : أن .. أن لا يحسن استخدام السكين ..

عساكر : اطمئنى .. اطمئنى يا مبروكة .. عندما ترين « علوان » الآن وقد شب رجلا ، ستجدين عنده قوة الساعد التى تعرفينها فى « العزايزة » ...

مبروكة : (**تصغى إلى الصفير**) القطار يخرج من المحطة ..

عساكر : فليخرج إلى حيث شاء .. على أن يكون قد أحضر لنا « علوان » ، يخرج روح القاتل ، ويتركه لكلاب العزب جيفة وأشلاء !..

مبروكة : وإذا لم يحضر ؟!..

عساكر : لماذا تقولين هذا يا « مبروكة » ؟!..

مبروكة : لا أدرى .. هذا تخمين ...

عساكر : وما الذى يمنعه من الحضور ؟..

مبروكة : وما الذى يدفع إلى ترك القاهرة والبندر والأزهر ؛ ليحضر إلى هنا ..

عساكر : هنا مسقط رأسه .. هنا مكان الدم الذى يناديه ..

مبروكة : ما أبعد قريتنا عن القاهرة !.. هل يستطيع صوت الدم أن يصل إلى البنادر ؟!..

عساكر : أتعتقدين أنه لن يحضر ؟..

مبروكة : علمى علمك يا عساكر ..

عساكر : وخطابه الذى قرأه علينا العريف ؟..

مبروكة : أنسيت أنه قال فيه : « ربما أحضر إذا سمحت الظروف » ... من يدرى هل الظروف سمحت له أو لم تسمح ؟..

عساكر : لا تكسرى نفسى « يا مبروكة » ... ولا تهدمى أملى .. أنا التى سمعت صفارات القطار تنقلب فى قلبى زغاريد ، مؤذنة بقرب انتهاء هذا الحداد الطويل !.. « علوان » لم يحضر ؟!. وماذا يكون مصيرى ؟!.. وإلى أى وقت أنتظر مرة أخرى ؟!..

مبروكة : المحطة ليست بعيدة .. وداير الناحية قريب .. ولو أنه حضر

لكان صميده الآن قد غنى ..

عساكر : ربما كانا يمشيان متثاقلين .. يتحادثان .. إنهما لم يتقابلا منذ أكثر من ثلاث سنوات .. منذ آخر مرة ذهب فيها ابنك إلى القاهرة .. فى مولد سيدنا الحسين ..

مبروكة : لو كان حضر لكانت الفرحة هزت ابنى فغنى قبل أن يصل إلى داير الناحية ..

عساكر : ربما نسى أن يفعل .

مبروكة : لا يمكن أن ينسى ..

عساكر : (**تنصت**) لا أسمع غناء ..

مبروكة : (**منصتة**) ولا أنا ..

عساكر : (**وهى تنصت**) ما من أحد يغنى .. حتى ولا راعى غنم !.. وما من شيء يغنى .. حتى ولا بومة فى خرابة !.. صدقت يا « مبروكة » إنه لم يحضر ..

مبروكة : (**كالمخاطبة نفسها**) قلبى يحدثنى بشيء !..

عساكر : بل قلبى أنا .. قلبى الكتوم كالقبر .. الجامد كالصخر ، بدأ يحدثنى الآن بأشياء ..

مبروكة : بماذا يحدثك ؟..

عساكر : بأشياء ستقع ..

مبروكة : أخبرينى ..

عساكر : (**ترهف الأذن**) صه .. اسمعى .. اسمعى .. سمعت يا مبروكة ؟.. سمعت ؟..

مبروكة : « صميدة » يغنى ؟..

عساكر : وافرحتاه ...

(تصغيان مليا إلى أغنية صميدة التى تسمع من الخارج واضحة شيئا فشيئًا ..)

صميدة : **(يغنى فى الخارج باللهجة الصعيدية :)**

يا نخل كم عذر جذمنا إليك والتوب
لومك لما زاد مزجنا الجميص والتوب
أنا لما سمعت بالأب خجلى ما بقيش وصفه
وعنى الاتنين صبوا على الحديد وصفوا

عساكر : حضر .. « علوان » حضر !.. اليوم أمزق قميص الـذل ، وألبس ثياب العز ..

مبروكة : ونقيم للمرحوم مأتمه ..

عساكر : وننحر على روحه الجدى والعجل ..

مبروكة : يا فرحتنا !.. يا فرحتنا .. **(تريد أن تزغرد)**

عساكر : **(تمنعها)** لا تزغردى الآن .. لئلا ينكشف الأمر قبل الأوان ..

مبروكة : ساعاتك معدودة منذ الآن يا « سويلم يا طحاوى » !..

(يدق باب الدار .. فتبادر عساكر إلى فتحه .. وعندئذ يظهر « صميدة » حاملا حقيبة ....)

صميدة : جئت بالشيخ علوان !.. **(يضع الحقيبة على الأرض ويظهر « علوان » فى أثره)**

عساكر : **(فاتحة ذراعيها لعلوان)** ابنى .. « علوان » .. ولدى !..

علوان : **(وهو يقبل رأسها)** أماه !..

عساكر : **(لابنها)** سلم على خالتك مبروكة !..

علوان : **(يلتفت)** كيف حالك ؟!.. يا خالتى مبروكة ؟..

مبروكة : حالنا هو حالنا يا علوان .. والبركة فيك !..

صميدة : هلمي بنا الساعة يا أمي إلى دارنا ..

مبروكة : إلى دارنا .. ساعة الفرج قريب يا عساكر !..

(تنصرف « مبروكة » مع ابنها « صميدة » .. ولا يبقى غير « عساكر » و « علوان » ...)

عساكر : ألست جوعان يا « علوان » ؟!.. عندى إناء لبن رايب !!..

علوان : ليس بى جوع يا أمى .. أكلت فى القطار شيئاً من كعك وبيض ..

عساكر : ألست عطشان ؟..

علوان : ولا عطشان ..

عساكر : نعم .. لم تجىء لطعامنا ولا لشرابنا .. إنما جئت لتأكل من لحمه وتشرب من دمه ..

علوان : (**كالحالم**) جئت يا أمى لأمر عظيم !..

عساكر : أعرف يا ابنى .. أعرف .. انتظر حتى آتى إليك بما لم ترعينك قبل الآن .. (**تسرع إلى حجرة داخلية وتغيب فيها لحظة....**)

علوان : (**وهو يقلب النظر فيما حوله**) لم تزل عينى ترى فى دوركم هذا الحيوان وروثه ، وزير الماء وقذره ، وأعواد الحطب والذرة تعرش هذه السُّقُف المتداعية!..

عساكر : (**تظهر من الحجرة حاملة خرجا تطرحه أمام ابنها**) سبع عشرة سنة .. وأنا أحتفظ لك بهذه الأشياء !..

علوان : (**ينظر إلى الخرج من غير أن يتحرك**) ما هذا ؟!..

عساكر : الخرج الذى جاءتنى فيه جثة أبيك .. محمولة على حمارة .. فى هذا الجيب وجدت رأسه المقطوع ، وفى الجيب الآخر بقية

الجسم مقطعًا . قتلوه بسكينه الذى كان يحمله .. وألقوا معه بالسكين فى المخرج .. انظر ها هو السكين.. تركته بدمه حتى صدىء عليه .. أما الحمار الذى جاءنى بأبيك المقتول ، بخطواته التى تعرف الدار ، وبرأسه المطأطىء ، كأنه على صاحبه متفجع محزون ، فلم أستطع الاحتفاظ به لك ، فقد نفق بالموت ، وعجز عن احتمال هذه السنين الطوال !!..

علوان : ومن الذى فعل ذلك ؟..

عساكر : « سويلم الطحاوى » ..

علوان : كيف عرفت ؟

عساكر : البلدة كلها تعرف !..

علوان : نعم .. قلت لى ذلك .. وذكرت لى هذا الاسم عشرات المرات .. كلما جئت لزيارتى فى القاهرة .. وكنت صغيرًا لا أفكر ولا أناقش ، أما اليوم فإن عقلى يريد أن يقتنع .. ما هو الدليل ؟.. هل حصل تحقيق فى هذه الجريمة ؟.

عساكر : تحقيق ؟!..

علوان : نعم .. ماذا قلتم للنيابة ؟.

عساكر : النيابة ؟.. يا للعار .. نحن نقول للنيابة ؟!.. « العزايزة » يفعلون ذلك ؟!.. أكان « الطحاوية » فعلوا ذلك فى يوم من الأيام ؟!..

علوان : ألم تسألكم النيابة ؟!..

عساكر : سألتنا .. وقلنا لا نعرف شيئًا .. ولم نرجثة .. وقد دفنا أباك فى الليل سرًا ..

علوان : (**كالمخاطب نفسه**) كى نقتص نحن بأيدينا !..

عساكر : بعين السكين الذى قتل به أبوك !..

علوان : والقاتل ؟..

عساكر : حي يرزق .. حي .. وما من شيخ فى الناحية ولا مزار ولا ولى ، لم أتعلق بحديد شباكه ، ولم أعفر رأسى فى ترابه ، ولم أكشف شعرى فى مقامه ، داعية أن يطيل الله فى أجله .. إلى أن تقبض روحه أنت يا ابنى بيدك !..

علوان : أو اثقة أنت يا أمى أنه هو ؟..

عساكر : ليس لنا من عدو غير الطحاوية..

علوان : ومن أدراك أنه « سويلم الطحاوى » بالذات ؟!.

عساكر : لأنه يعتقد أن أباك هو الذى قتل أباه ؟..

علوان : وهل أبى قتل أباه حقًا ؟..

عساكر : الله أعلم !..

علوان : وما أصل هذه العداوة بين الأسرتين ؟!..

عساكر : لا أدرى .. لا أحد يدرى هذا شيء قديم .. كل ما نعرف هو أنه دائمًا بيننا وبينهم دم ..

علوان : قد يكون الأصل أن عجلة لأجدادنا شربت ذات يوم من مروى فى غيط لأجدادهم !..

عساكر : علم ذلك عند علام الغيوب !.. كل ما يعلم الناس هوأن بين « العزايزة » و « الطحاوية » دماء تجرى كالأنهار ..

علوان : أنهار لا تروى الزراعة ولا الثمار !..

عساكر : (**مستمرة**) لم يقف لها جريان إلا بعد موت أبيك ، لصغر سنك .. وجرت الأعوام جافة كأيام التحاريق .. حتى همس الهامسون ، وأرجف المرجفون .. وأنا أتلوى على الغيظ

وأكظم .. انتظارا لهذه الساعة .. وها هى قد جاءت .. فقم يا ابنى وأطفى نارى ، وارو غليلى من دم « سويلم الطحاوى » !..

علوان : وهل « لسويلم الطحاوى » هذا ولد ؟..

عساكر : له ابن فى الرابعة عشرة ..

علوان : لن يبقى لى إذن فى الحياة غير أربعة أعوام ، أو خمسة !..

عساكر : ماذا تقول ؟..

علوان : (**مستمرًا**) إلى أن يشتد ساعده ، فيصنع بى ما أصنع بأبيه !..

عساكر : أتخاف على حياتك يا « علوان » ؟!..

علوان : وأنت يا أماه .. ألا تخافين عليها ؟!..

عساكر : شهد الله كم أخاف على الشعرة التى فى رأسك !..

علوان : تحرصين على حياتى يا أماه ؟!..

عساكر : وهل لى حياة يا « علوان » إلا بحياتك ؟.. وهل للعزايزة حياة إلا بك !.. إننا لا نعيش جميعًا إلا بأنفاسك منذ سبعة عشر عاما!.

علوان : (**مطرقا**) نعم .. فهمت ..

عساكر : كم شعرنا بالمذلة وكم صبرنا على الضيم .. فما يخطر لنا طيفك ، حتى تنشط فينا الهمم وتقوى العزائم وتتلاقى نظراتنا على الأمل المعقود عليك ..

علوان : (**مطرقا كالمخاطب نفسه**) حقا .. لا بد لكم من حياتى !..

عساكر : حتى مأتم أبيك فى انتظارك يا « علوان » .. وهذه الذبائح معدة للنحر ... وعويلى الذى حبسته فى حلقى طوال هذه الأعوام ينتظرك لينطلق .. وقميصى الذى أمسكت عن شقه كل هذا الزمن يترقبك ليشق .. كل شىء فى وجودنا هامد راكد ..

يتطلع إليك لتدب فيه الحياة ..

علوان : (كالمخاطب نفسه) أهكذا تدب فيكم الحياة ؟!..

عساكر : نعم يا « علوان » ... عجل بالساعة الموعودة .. عجل لقد انتظرناها طويلا !..

علوان : (فى عجب) الساعة الموعودة !..

عساكر : مامن شيء نسيته .. حتى الحجر الذى سيسن عليه السكين الصدىء .. أحضرته لك وأخفيته فى هذه الحجرة ..

علوان : وكيف أعرف « سويلم » هذا ، وأنا لم أره فى حياتى !!..

عساكر : « صميدة » يدلك عليه ويريك مكانه ..

علوان : (ينظر إلى زيه) وهل سأرتكب هذه الفعلة ، وأنا بهذه الثياب ؟!.

عساكر : اخلع ثيابك هذه .. عندى عباءة لأبيك .. أحتفظ بها لك (تتجه إلى الحجرة الداخلية)

علوان : (يستوقفها) مهلا يا أمى مهلا .. فيم الإسراع ؟!..

عساكر : كل نسمة يستنشقها « سويلم » وأنت هنا هى منحة منك له !..

علوان : وأى ضرر فى ذلك ؟!..

عساكر : إنها تؤخذ من أنفاسنا .. وتستقطع من هنائنا .. لقد مددنا له من حبال العمر برغمنا ما كاد يلحقنا نحن بالقبور .. تأمل أمك يا « علوان » !.. كنت فى الشباب عند موت أبيك . انظر ماذا فعلت بى هذه السنون ؟!.. لكأنها أربعون عاما .. لا سبعة عشر !.. غاض ماء الصبا .. ووهن العظم .. وما بقى لى من قوة غير الذاكرة التى لا يمكن أن تنسى ، والقلب الذى لا يمكن

أن يلين ...

علوان : (**كالمخاطب نفسه**) نعم .. ما أبهظ ثمن الثأر على صاحب الدم !..

عساكر : (**غير فاهمة**) ماذا تقول يا علوان ؟!..

علوان : أقول إن المنتقم الجبار كان رحيما عندما أراد تعالى أن يحمل عنا هذا العبء بلا ثمن !..

عساكر : (**بلهجة ارتياب**) ماذا تقصد ؟..

علوان : لا شيء يا أمي .. لا شيء ..

عساكر : (**حاسمة اللهجة**) اخلع ثيابك .. وسأحضر لك العباءة !.. وأسن لك بيدى السكين !..

علوان : أليس هنا من مسجد قريب !..

عساكر : ما عندنا غير « زاوية » صغيرة بجوار كتاب « الشيخ الإسناوى » ...

علوان : (**يتحرك**) سأذهب إليها لأصلى المغرب ..

عساكر : الآن ؟!..

علوان : أظن الشمس قد أوشكت على الغروب ..

عساكر : أتريد أن يراك فى المسجد كل أهل البلد ؟!..

علوان : إنها لخير فرصة تخدم غرضى ...

عساكر : (**تحملق فى وجهه**) أأنت مجنون يا « علوان » ؟!..

علوان : (**مستمرًا**) هذا الاجتماع بأهل البلد هو لى من أهم الأمور .. ألم أقل لك يا أمى الساعة إنى جئت لأمر عظيم ؟..

عساكر : (**كالمتهكمة**) ما أظنك ستكشف لأهل البلد عما جئت له ؟!..

علوان : لا بد من أن أطلع الجميع على هذا الأمر ..

عساكر : علوان !.. ابنى !.. ماذا أسمع منك ؟!.. أأنت جاد ؟.. أأنت فى وعيك ؟.. ماذا ستقول لهم ؟!..

علوان : (كالحالم) سأقول لهم ما جئت لأقول .. إنى طالما فكرت فى بلدتى وأهل بلدتى .. على الرغم من اغترابى الطويل .. هناك بعد الفراغ من دروس الأزهر ، حيث يجتمع الزملاء ، وتقرأ الصحف ، ويعاودنا الحنين إلى الأرض التى أنبتتنا ، نسائل أنفسنا متلهفين :

متى يعيش أهلنا فى الريف كما يعيش الآدميون ، فى دور نظيفة لا يؤاكلهم فيها الحيوان ؟.. ومتى تعرش سقوفهم بغير أحطاب القطن والذرة ، وتطلى جدرانهم بغير الطين وروث البهائم ؟!.. متى يختفى « الزير » وتجرى فى الدور المياه النقية ؟.. وتذهب المسرجة وتضىء المصابيح الكهربائية ؟.. أكثير هذا على أهلنا؟ أليس لأهلنا حق فى الحياة مثل الآخرين ؟

عساكر : (كمن لم تفهم) ما هذا الكلام يا « علوان » ؟!..

علوان : هذا ما يجب أن يعرفه أهل البلد .. وواجبنا نحن الذين تعلمنا فى القاهرة أن نبصرهم بحقهم فى الحياة .. وليس بلوغ هذا المأرب بالصعب عليهم ، إذا اتحدوا وتضافروا وتعاونوا على إنشاء مجلس منهم ، يفرض الإتاوات على القادرين ، وعلى تكوين فرق من الأشداء ، تنهض فى أوقات الفراغ الطويلة هنا ، بإقامة الجسور والمنشآت .. بدلا من إضاعتها فى النفور والمشاحنات .. لو جمعت هذه الكلمة ، وبذلت هذه الهمة ، لقامت هنا بلدة نموذجية .. لن تلبث حتى تكون مثالا يحتذيه كل بلاد القطر !..

عساكر : كلام القراءة والكتابة هذا تسامر به فيما بعد « الشيخ

محمد الإسناوى » ، هو الذى يفهمه .. أما الآن يا « علوان » فأمامنا ما هو أهم من ذلك ..

علوان : (مصدوما) ما هو الذى أهم من ذلك ؟!..

عساكر : نعم..دعك من الصلاة فى الجامع الليلة لئلا يفسد الأمر .. صل هنا الليلة إذا شئت .. قم واخلع ثيابك .. وسأحضر لك من « الزير » ماء تتوضأ .. والبس العباءة .. ثم سن معسى السكين !..

علوان : (مطرقا هامسا) اللهم رحمتك ورضوانك وغفرانك ؟..

عساكر : ماذا تقول يا « علوان » ؟..

كلوان : (يرفع رأسه) أقول إنى ما جئت إلا لأبصركم بالحياة وأحمل لكم الحياة..

عساكر : وهذا ما صبرنا الليالى ترقبا له .. سبعة عشر عاما والعزايزة كلهم أموات فى انتظار مجيئك لترد إليهم الحياة !..

علوان : (يطرق هامسًا) رباه !.. ماذا أصنع مع هؤلاء ؟!..

عساكر : ما بالك يا علوان تكثر من الإطراق ؟! انهض ولا تضيع الوقت . انهض ..

علوان : (يرفع رأسه متشجعا) أمى .. لن أقتل !..

عساكر : (تكتم ارتياعها) ماذا أسمع ؟!..

علوان : لن أقتل ..

عساكر : (بصوت أجش) دم أبيك !..

علوان : أضعتموه أنتم بإخفائه عن الحكومة .. القصاص لولى الأمر !..

عساكر : (بلا وعى) دم أبيك !..

علوان : يدى لم تخلق لتزهق روحا !..

عساكر : (شبه غائبة الصواب) دم أبيك !..

علوان : (**مرتاعا لحالها**) أمي .. ماذا أصابك ؟.. أماه ..

عساكر : (**كمن لا ترى أحدا أمامها**) دم أبيك .. سبعة عشر عاما .. دم أبيك سبعة عشر عاما ..

علوان : هدئ روعك يا أمي .. إنها حقا لصدمة .. ولكن يجب أن تفهمي أني لست الرجل الذي يغتال بسكين !..

عساكر : (**هامسة كمن أصابها مس**) سبعة عشر عاما .. ثأر أبيك .. سبعة عشر عاما ..

علوان : (**كالمخاطب نفسه**) أعرف أنك احتملت وصبرت طويلا يا أمي .. لو كان صبركم هذا وقوة احتمالكم لهدف نافع ، لأقمتم المعجزات !.. لكن افهمي مني ..

عساكر : (**في شبه حشرجة**) دم أبيك !..

علوان : (**يسرع إليها مرتاعا**) أمي .. أمي .. أمي !..

عساكر : (**تفيق بين يديه**) من أنت ؟!..

علوان : ابنك « علوان » .. ابنك !..

عساكر : (**تفطن ثم تصيح**) ابني ؟!.. ابني أنا ؟!.. لا .. لا .. أبدًا .. أبدًا ..

علوان : (**مأخوذًا**) أمي !..

عساكر : لست أمك .. ولا أعرفك .. لم يخرج من بطني ولد .. لم يخرج من بطني ولد ..

علوان : (**متوسلا**) افهمني مني يا أمي ..

عساكر : اخرج من داري .. لعنة الله عليك إلى يوم الدين .. اخرج من داري ..

علوان : أمي !..

عساكر : (**صائحة**) اخرج من دارى .. وإلا استنجدت بالرجال ليخرجوك .. عندنا رجالنا .. لم يزل فى العزايزة رجال .. أما أنت فلست منهم .. اخرج .. من دارى ..

علوان : (**يتناول حقيبته**) سأذهب إلى المحطة لأعود من حيث جئت .. وأسأل الله أن تسكن نفسك الثائرة ، وأراك قريبا فى « القاهرة » لأفهمك وجهة نظرى فى جو هادئ بعيد .. إلى اللقاء يا أمى !..

(ينصرف تاركا أمه « عساكر » فى مكانها بلا حراك . ولا تمضى لحظة حتى يظهر « صميدة » مطلا برأسه من الباب الذى دفعه برفق)

صميدة : أأنت التى كنت تصرخين يا خالة « عساكر » ؟!..

عساكر : (**بعزم وقد ثابت إلى رشدها**) تعال يا « صميدة » !..

صميدة : (**يتلفت حوله**) أين ابنك « علوان » ؟..

عساكر : ليس لى ابن .. لم أرزق ولدا !..

صميدة : ماذا تقولين يا خالتى « عساكر » ؟!..

عساكر : لو كان لى ولد لأخذ بثأر أبيه !.. قد مات.. (**تتناول الزمان**!.. ؟!..

صميدة : (**يبحث بعينه فى المكان**) أين ذهب ؟..

عساكر : إلى المحطة .. ليعود إلى القاهرة ..

صميدة : صدقت أمى !.. عندما رأته الساعة قالت ونحن خارجان : ليس هذا « الأستاذ » هو الذى سيقتل « سويلم الطحاوى » !..

عساكر : ليت بطنى قطع تقطيعا قبل أن يخرج إلى الدنيا مثل هذا الابن !..

صميدة : هونى عليك يا خالتى .. فى « العزايزة » رجال !..

عساكر : البركة فيك يا « صميدة » !..

صميدة : ولد العم فى مقام الابن ..

عساكر : ولكن الابن حى .. وهو الأولى بدم أبيه .. حى .. حى .. يمشى بين الناس !..

صميدة : هبى أنه قد مات..

عساكر : ليته مات حقا وهو صغير فى بئر الساقية .. ما كنا انتظرنا هذه السنين الطوال ، تتقلب على جمر الغيظ المكتوم ، ونترقب فى غير طائل .. ليته ميت ، كنا عشنا بعذرنا ، وما ارتدينا عارنا .. ولكنه حى .. وقد شاع فى الناحية وذاع فى الأسواق أنه حى .. فيا للعيب .. ويا للخجل .. ويا للعار ويا للشنار !..

صميدة : هونى عليك يا خالة !..

عساكر : كل شىء يهون إلا هذه الوصمة !.. ما بعد هذه الوصمة عيش !.. كيف أعيش فى البلد وقد عرف الناس أن لى مثل هذا الولد ؟!.. ما أكثر البصقات التى سوف تقذف من الأفواه كلما لفظ اسمه .. سوف تسمع الصيحات من كل جانب : « خيبة الله على بطن قذفه !.. » نعم .. هذا البطن .. (**تضرب بطنها بيدها ضربات شديدة جنونية**) خيبة الله على هذا البطن .. سيسخر منه كل نساء البلدة ، حتى الشوهاء والبلهاء والعاقر .. هذا البطن ... هذا البطن .. هذا البطن !..

صميدة : (**يحاول منعها**) يا خالة « عساكر » .. لا تؤذى نفسك هكذا !..

عساكر : هات السكين يا « صميدة » .. ابقره به ..

صميدة : أجننت ؟!..

عساكر : (صائحة) صميدة .. أأنت رجل ؟!..

صميدة : (يحملق فيها) ماذا تريدين ؟..

عساكر : ادرأ عن ابن عمك العار !..

صميدة : علوان ؟!..

عساكر : وعن أمه .. خالتك « عساكر » .. ادرأ عنها العار ..

صميدة : ماذا أعمل ؟..

عساكر : (تتناول السكين من الخرج) اقتله بهذا السكين !..

صميدة : أقتل من ؟..

عساكر : علوان .. اغمد هذا السكين فى صدره !..

صميدة : أقتل علوان ؟.. ابنك ؟!..

عساكر : نعم .. اقتله .. اجعله فى الأموات ..

صميدة : اعقلى يا خالة !..

عساكر : افعل ذلك يا صميدة .. من أجلى ومن أجله !.

صميدة : من أجله ؟!..

عساكر : نعم.. خير له ولى أن يقال قتل ومات من أن يقال هرب من ثأر أبيه !..

صميدة : ولد عمى ..

عساكر : إذا كنت رجلا يا « صميدة » فلا تدعه يفضح « العزايزة » !.. لن تستطيع بعد اليوم أن تمشى فى الناس مشية الرجال ، سوف يتهامسون عليك ، ويضحكون منك فى الأكام ويشيرون إليك فى الأسواق قائلين : امرأة تسترت على امرأة !..

صميدة : (كالمخاطب نفسه) امرأة !..

عساكر : لو كان فى « الطحاوية » مثل هذا الابن . لما تركوه حيا ساعة من

الزمان!.. ؟!..

صميدة : (**كالمخاطب نفسة**) امرأة تسترت على امرأة !..

عساكر : نعم .. أنت !.. إذا قبلت التغاضى عن ابن عمك بعد الذى حصل منه !..

صميدة : (**ماذا يده بعزم**) هاتى السكين !..

عساكر : (**وهي تعطيه السكين**) خذ .. بل انتظر .. حتى أغسل ما تجمد على حدة من الصدإ والدم !..

صميدة : (**بعجلة**) « هاتى » .. قبل أن يفلت فى قطار المغرب !..

عساكر : (**تعطية السكين بقوة وعزيمة**) خذ .. وليغسل دمه ما تجمد على النصل من دماء أبيه .

صميدة : (**وهو منصرف بالسكين**) إذا تم قتله يا خالة ، فستسمعين صوتى ينطلق بالأغنية من داير الناحية !..

(ينصرف مسرعا وتبقى « عساكر » وحدها مسمـرة فى الأرض كتمثال .. جامدة النظرات كالغارقة فى ذهول .. إلى أن تظهر من الباب « مبروكة » حاملة على رأسها الماء ...)

مبروكة : (**وهي تنزل الإناء من فوق رأسها**) ملوحة جئت بها للشيخ « علوان » !..

عساكر : (**تلتفت ببطء**) البقية فى حياتك يا « مبروكة » !..

مبروكة : حياتك الباقية ، فيمن ؟..

عساكر : « علوان » ..

مبروكة : ابنك ؟!

عساكر : ليس الآن ابنى .. بل ابن التراب !..

مبروكة : ما هذا الذى تقولين يا عساكر ؟!.. لقد تركته معك منـذ

قليل .. أين هو ؟..

عساكر : ذهب إلى المحطة ، ليعود من حيث جاء ، هاربا من ثأر أبيه !..

مبروكة : (مطرقة) هذا ما حدثنى به قلبى !..

عساكر : صدق فألك يا « مبروكة » !..

مبروكة : ليته ما حضر !..

عساكر : سبعة عشر عاما ونحن ننتظر !..

مبروكة : وفى كل عام منها تقولين قد كبر .. كأنه نبت ذرة ، تقيسينه كل يوم بالشبر .. حتى إذا ترعرع وطال ونضج كوزه ونزعت غلافه ، فوجدته خاليا من الحب والثمر !..

عساكر : لو أنه كان نبتا فارغا لهان الخطب .. فما كنا ننتظر منه غنما لنا .. ولكننا كنا ننتظر منه ردًا لكرامتنا .. لطالما فخرت به يا « مبروكة » فى نفسى .. وفاخرت به أمامك .. وحسبت أنى أنجبت الولد الذى سيغسل شرف الأسرة.. وإذا ابنى أنا الذى ولدته وأخفيته كما يخفى الكنز فى « الزلعة » ليس غير وصمة أصابت شجرتنا ، كما تصيب اللطعة شجرة القطن .. ألف رحمة عليك يا زوجى المهدر الدم .. لقد خلفت لك الابن الذى يشمت خصومك وتقر به أعين أعدائك !.

مبروكة : يا فضيحة « العزايزة » ..

عساكر : لو بقى حيا .. ولكنه بعد قليل يوارى فى التراب !..

مبروكة : (تتلفت فجأة) أين « صميدة » ؟!..

عساكر : (ترهف الأذن لصوت صفير) صه .. هذا قطار المغرب يدخل المحطة !..

مبروكة : أين « صميدة » يا « عساكر » ؟!..

عساكر : (**وهي ترهف الأذن**) اسكتي .. الآن في هذه الساعة .. في هذه الساعة ؟..

مبروكة : (**بدهشة**) ماذا في هذه الساعة ؟!..

عساكر : (**كالمخاطبة نفسها**) أترى القطار قد خطفه ؟.. أم الذى خطفه ..

مبروكة : ما دام قد ذهب إلى المحطة كما قلت ، فلا بد أنه قد ركب القطار ، ولن تجدى كل دعوات الهلاك هذه التى تصبينها عليه !..

عساكر : أتظنين حقًا يا « مبروكة » أنه ركب القطار ؟..

مبروكة : وما الذى يكون قد منعه ؟..

عساكر : (**بدون وعى**) « صميدة » !..

مبروكة : صميدة ؟!.. أذهب خلفه ليمنعه من السفر ؟..

عساكر : نعم ..

مبروكة : متى ذهب ؟..

عساكر : قبل مجئك بقليل .

مبروكة : ما أظنه سيلحق به ؟..

عساكر : (**تتنفس**) أتعتقدين يا « مبروكة » ؟..

مبروكة : إلا إذا جرى وركض ..

عساكر : (**ترهف الأذن لصفير**) ها هو القطار يغادر المحطة ..

مبروكة : (**تحملق فيها**) مالك يا عساكر !.. ما لوجهك قد اصفر !..

عساكر : بماذا يحدثك قلبك يا « مبروكة » ؟!..

مبروكة : يحدثنى قلبى بأنه ذهب !..

عساكر : ذهب .. ذهب .. أين ؟..

مبروكة : من حيث جاء !..

عساكر : (**محملقة**) ماذا تقصدين ؟!..

مبروكة : (**وهي تراقبها**) ما لصدرك يا « عساكر » يعلو ويهبط ؟!..

عساكر : (**تهمس زائغة البصر**) ذهب من حيث جاء !..

مبروكة : أما زلت يا « عساكر » تؤملين فيه خيرا ؟!..

عساكر : لا ..

مبروكة : اعتبريه كأن لم يكن ..

عساكر : (**كالمخاطبة نفسها**) نعم .. موته أستر من حياته !..

مبروكة : احمدى الله أنه بعيد .

عساكر : (**كمن تسائل نفسها**) أهو الآن فى القطار ؟!..

مبروكة : من يدرى ؟.. ربما استطاع « صميدة » أن يلحق به ، وأن يثنيه عن السفر ، وأن يعود به الآن ..

عساكر : (**كالحالمة**) يعود به الآن ؟!..

مبروكة : ولم لا ؟.. إن « صميدة » إذا أطلق ساقيه للريح فلن يفوته القطار ..

عساكر : (**فى همس**) سيلحق به ؟!.

مبروكة : وقد لا يمضى قليل حتى نراهما قد جاءا مرة أخرى معا ..

عساكر : (**كالمخاطبة نفسها**) لا .. هذه المرة لن يجىء « صميدة » إلا وحده ..

مبروكة : (**وهي تراقبها بقلق**) وجهك يا « عساكر » يخيفنى !..

عساكر : (**ترهف الأذن**) صه .. اسمعى .. اسمعى .. ألا تسمعين شيئًا ؟!..

مبروكة : لا . ماذا تريدين أن أسمع ؟!..

عساكر : غناء ؟!..

مبروكة : (**تصغى** لا.. لا أسمع غناء..

عساكر : (**وهى تتنفس**) ولا أنا ..

مبروكة : أقال لك « صميدة » إنه سيغنى ؟!..

عساكر : (**كالمخاطبة نفسها فى قلق**) لعله لم يصل بعد إلى داير الناحية !..

مبروكة : فى ظنى أنه قد وصل .

عساكر : (**وهى تتنفس**) وصل إلى داير الناحية و لم يغن !..

مبروكة : ما لوجهك يا عساكر قد تورد !..

عساكر : (**هامسة**) لم يلحق به ..

مبروكة : تفضلين يا « عساكر » ألا يعود .. وأن يحمله قطاره بعيدًا عن هذه البلدة.أنا أيضًا معك .. أفضل له العودة إلى قاهرته وشيوخه وأترابه .. فما هو منا الآن وما نحن منه !.. ولقد أحسن صنعًا بالإسراع إلى تركنا ، قبل أن يختلط به أهل البلد ويعرفوا من أمره ما عرفنا ..

عساكر : (**مصغية إلى صوت بعيد**)؟..

مبروكة : (**تلتفت اليها**) أذنك ليست معى يا « عساكر » .. ألست أقول حقًا ؟!..

عساكر : (**بصوت أجش مروع**) لا .. لا أسمع شيئًا !..

مبروكة : (**مصغية**) بل هذا « صميدة » يغنى !.. (**تلتفت مذعورة إلى « عساكر » التى تبلورت عيناها**) « عساكر » !.. « عساكر » !.. ماذا أصابك ؟.. إنك تخيفيننى !..

صميدة : **(يغنى من الخارج باللهجة الصعيدية:)**

ياخـــــل كم عـــــذر جدمنـــا إلـــيك والتـــوب
لـــــــــــومك لما زاد مزجنـا الجميص والتـوب
أنـــا لما سمعت بـــــالأب خـــجلى مـــا يجيش وصفــه
وعينـــى الاتـــنين صبـــــوا على الحديـــــد وصفـــــوا

عساكر : **(تتجلد بقوة حتى لا تنهار ولكن صيحة خافته مكتومـة كالحشرجة تفلت منها :)** ولدى !..

(ستـــــار)